

وضعنا النقدي ، بعض من سماته وامكانياته

محمد بنيس

١ - ربما كان أطول صراع عرفته الساحة الثقافية بالمغرب منذ بداية السبعينات هو الذي انفجر فجأة في السنة الماضية ، حول وضعيه النقد بالمغرب ، على صفحات الجرائد الوطنية ، وخاصة الملحق الثقافي « للعلم » ، و « المحرر الثقافي » . ولعل هذا الصراع الذي دامت مدته ما يقارب السنة ، دون أن ينكسر الدافعون اليه ، والخائضون فيه ، بدأ الآن يدخل مرحلة من الصمت ، بعد أن أنهك الجميع ، من المشاركين والمتتبعين ، تعب لا يقل عن تعب المحاربين الذين أدركوا أن معركتهم خاسرة ، لأنها من غير منطلق واضح ، أو هدف واضح أيضا .

وقد تتبعنا ، مع المتتبعين ، هذا الصراع النقدي ، وحاولنا الا نتدخل فيه ، حتى تستوى الامور ، نسجم حصيلته ، نراجعها ، ونقرأها بوعي نقدي ، يستخلص المحاور الاساسية لهذا الصراع ، وأبعاده الثقافية ، ونناقشه التي يمكن أن تصلح كأرضية لانطلاقة صحيحة ، لا تجعل من الظروف الموقته حصانا لها ، ولا تمتحن القذف والكلام اللا مسؤول ، أو تساعد على تسييد الغموض في الاختيارات والتوجيه معا . وقد كنا نشعر ، منذ الوهلة الاولى ، من انفجار هذا الصراع ، بأن جل ما يكتب بعيد عن النقد الادبي ، وبعيد عن الثقافة . بل له علاقة بمجالات أخرى سنحاول التعرض اليها ما وسعتنا الموضوعية .

٢ - وسنكون مغالطين اذا قلنا بأن كل ما كتب لا يدخل في مجال النقد لان قلة من المتدخلين في الصراع كانوا مدفوعين لمناهضة بعض القيسم النقدية والسلوكية التي يحاول المدعون جعلها أساسا للممارسة النقدية ، بعد أن استغلوا وسائلهم الاعلامية ، مبشرين بأرائهم المغالطة ، على امتداد المناوين البارزة . غير أن هذه القلة من المتدخلين ، وهي تواجه كتابة نقدية بالمفهوم المنحط لهذا المصطلح ، لم تكن هي الاخرى قادرة على فرض رأيها ، لان كتابتها ، أخيرا ، ضاعت بين غبار أهوج ، لم يترك خيطا واضحا يظهر ، ولا نورا يتسرب الى أذهاننا . ولذلك فان قلة ما كتب في مجال النقد ،

منهجاً وتطبيقاً ، بقي هامشياً داخل هذا الصراع ، الذي كانت العوامل الذاتية مرة ، والعوامل غير الثقافية مرة أخرى ، هي المهيمنة لكوانته .

3 - لم يكن غريباً علينا ، في مثل وضع ثقافتنا المازومة ، ان ينفجر صراع حول النقد ، مناهجه ، وأشكالياته من حيث الاختيار والتطبيق ، ولكن الذي أعطى لهذا الصراع صفة المباحثة هو أن يبدأ كرد فعل ذاتي . وضيق الأفق ، على التحولات الثقافية والمناسبات السياسية التي كانت تدعو فعلاً لوجود صراع نقدي مشروع ، وليس لصراع نقدي مفتعل .

ان الصراع النقدي ، مثله مثل كل صراع في أي من المجالات الثقافية وكما علمنا تاريخ الأدب عربياً وإنسانياً ، يأتي نتيجة موقف نقدي يتخذه ناقد أو جماعة من النقاد أو الأدباء ضد تيار سائد أو موجود . والموقف النقدي ، الفردي أو الجماعي ، يأخذ ، في هذه الحالة ، صفة الدفاع عن قيم نقدية ، جمالية وفلسفية ووظيفية ، ذات بعد طبقي بالتأكيد ، هي نقيض السائد أو الوجود من قيم نقدية أخرى تهيمن على الذوق الأدبي والنقدي العام ، والصراع ، بهذا المعنى الذي نعرفه ، يكون محدد السمات ، واضحاً في اختياراته ، ومفاهيمه ، ومصطلحاته ، وبالتالي يشكل في كليته انسجاماً وتكاملاً .

اذن ، لم يظهر شيء من هذا القبيل في صراعنا النقدي الذي عرفته الساحة الثقافية في السنة الماضية ، وما ظهر واستبد بالصحف والأذهان معاً ، بعيد كل البعد عن النقد ، كاختيار منهجي ، ودعوة لمبادئ جمالية وفلسفية ، وتحديد لمهمته الوظيفية . ولأجل كل هذه الأسباب ، مجتمعة ومنفصلة ، أصبح من اللازم علينا ، كمثقفين ، نريد تحمل مسؤوليتنا الثقافية في هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا الحديث ، ان ننكب على ممارسة قراءة نقدية لهذا الصراع ، حتى نكون على بينة من بعض ما نحن فيه ، وما يجب علينا تخطيطه وتنفيذه .

4 - ان هناك فعلاً أزمة نقدية تستحق منا وقفة متأنية ، تدرس جذورها ، وتقيم مظاهرها ، وتفسر أسبابها ووقائعها . أزمة أثارها الأدباء والنقاد وجمهور المثقفين على صفحات الجرائد والمجلات ، وفي كثير من الندوات واللقاءات والمناقشات ، أفرغت كلاماً مكرراً ومستجداً ، توجه أصبح الاتهام إلى النقاد قارة ، وإلى الأدباء قارة ، وإلى مجالات النشر قارة ، ولم يعد خافياً على أحد أنها دائمة الطرح في الساحة الثقافية بمستويات متعددة من الوضوح والوعي ، تتناول النهج ، والمصطلح ، والوظيفة ، والفعالية ، ولكنها لم تجد فرصة لتنفجر بمنهجية ، وواضحة ، وهادفة . ولم يكن انفجارها ، الذاتي والعفوي ، في السنة الماضية على الشاكلة التي طبعت بها الا تأكيداً على أن مواجهتها أضحت ضرورية .

5 - وأزمنتنا النقدية ، والصراع حولها ، جزء من أزمة النقد العربي ،

فالتأثير بينهما متبادل ، ولو بشكل غير متكافئ ، والنتائج تتسحب عليهما معا . ومع ذلك فإن أزمة النقد بالمغرب تظل تحتفظ لنفسها بخصوصية لا سبيل إلى الفنبس عليها ، عند اغراقها في طبيعة الوضعية النقدية في العالم العربي ككل ، فالعلاقة بينهما لا تلغي الفرق ، والصلات الوثيقة بينهما غير متكافئة ولا متجانسة ، ويستتبع هذه الملاحظة ضرورة اعتبار الفرق والتأكيد عاينه ، والحيطة في معالجة الواحدة منهما بأسلوب الأخرى . وهذه الملاحظة الأساسية في نظرنا هي السبيل لعدم عزل أزمتنا النقدية عن محيطها العربي ، وتلبسها خصائص فطرية محلية ، تنظر لواقعها الموضوعي بعين عمياء ، وهي في نفس الوقت تمهدنا بالطرح القريب إلى الصحة ، أن لم يكن الصحيح ، لازمة النقد العربي ، من خلال ملامحها وخصائصها النوعية في كل منطقة على حدة ، تؤدي بنا في النهاية إلى وضع خريطة ماثوسية لأزمتنا النقدية على طول البلاد العربية وعرضها ، تدرس القضايا الجوهرية ، ولا تتناسى الفروق الثانوية التي تلعب بالتأكيد دورا خطيرا ، عند إهمالها ، في تقديم صورة غير دقيقة ولا واقعية عن أزمتنا النقدية في العالم العربي . ولأجل كل ذلك نجد رصدنا للصراع النقدي الذي عرفته الساحة الثقافية بالمغرب منبثقا عن وعي قومي ، لأنه جزء من رصدنا للوضع النقدية في عموم العالم العربي .

6 - اجتاز النقاش حول وضعيتنا النقدية مرحلتين بارزتين قبل أن ينفجر على مشكل صراع محموم . كانت المرحلة الأولى أثناء وبعد لقاء الشعر المغربي الذي نظمته اتحاد كتاب المغرب سنة 1975 ، والمرحلة الثانية أثناء وبعد نشر حسن الطربق دراسته المطولة حول الشعر المعاصر (من خلال أربعة نماذج) في نهاية 1976 وبداية 1977 ، وأشتعل الهيجان بعد نشر « الثقافة الجديدة » لمقال أبو الشفا العياشي (الحلم في نهاية الحداد - الزمن والسياسة) (العدد 5 - 6) ، وهو جهدنا نشرناه لإيماننا بضرورة تمكين الباحثين والمهتمين من فرصة نشر آرائهم وطرحها للمناقشة ، لأن الوضعية النقدية بالمغرب غير واضحة ، ولا بد من اجتهادات ، مهما قصر وعيها ، تخترق الصمت والإطمئنان . جاء الرد في البداية من جريدة « العلم » لتشكك في « الثقافة الجديدة » كمجلة ، معتمدة على التلميح والإشارة ، خاصة وأن هذا العدد كان إعلانا عن عودة صدور المجلة بعد توقفها القسري لأسباب قاهرة ، وربما كان هذا الرد يخفي بين صوائتسه وصوامته عدم الرغبة في عودة المجلة إلى الصدور . وفي نفس الفترة بدأت ردود الفعل تنفجر على مستوى النقاش الجدي حول المنهج النقدي ، ونحن هنا ، نعترف بأن هناك فرقا بين رد جريدة « العلم » وبين الكتابات التي كانت تبحث عن سؤال تثيرة بصدد ما كتبه العياشي ، ونذكر بالأخص مقالين لنجيب العوفي وفقية محمد بجريدة « الحرر » . ولكن تدخل حسن

الطريق وهجومه العلني على « الثقافة الجديدة » وأنصارها ، كان بمثابة الشعلة التي أوقدت الحرائق ، وأثارت الفتنة ، وتحول ما كان يمكن أن يكون صراعا حول أزمة النقد ، الى تفاخر وتناحر على الطريقة القبلية . هكذا كانت البدايات ، وبعدها تحولت الكتابة الى جحيم ، والنقد الى قذف ، وتخاصم المتدخلون في كل شيء ، ما عدا النقد . نريد أن نكون واضحين ، وربما خسورين أيضا ، لا بالمعنى الاخلاقي للكلمة ، في طرح الحقائق ، فقد مرت علينا حقبة ما تزال تظلمنا بصمتها ، وتصرمت حقبة أخرى تناثرت هباء ، ولذلك فضلنا تسمية الاشياء ، وملاحقة الافكار المغلوطة ، نفهمها ونفسرها ، ونعيد طرحها بوعي نقدي لا يتراجع عن اثبات ما يراه حقا ، ونفصح ما يراه باطلا .

7 - ان هذه المراحل المتكاملة في تاجيج الصراع حول وضعيتنا النقدية كانت تأخذ من نقد الشعر منطلقا لها . وهذه ملاحظة أساسية ، وربما يعود السبب لكون الشعر ذا جذور تاريخية في موروثة الثقافي ، بالإضافة الى أن الصراعات داخل تياراته بالمغرب أوضح منها في المجالات الادبائية الأخرى ، قصة ورواية ومسرحا وتشكيلا وسينما ، ومن ثم فهو بؤرة الاختلافات ، ومركز الابداع داخل الثقافة السائدة أو الثقافات الأخرى المتواجدة في الساحة الوطنية . على أنه لم تطرح في هذه المراحل ، ولا في هذا الصراع ، اشكالية المنهج الوصفي بوضوح ، ولا من يسأل عن أسرار الانقطاع في النقد المغربي ، أو التجريبية التي يعاني منها ، أو دلالة اكتساح الفهم البنيوي للنقد ، وخاصة تياره الذي لا يعارض اديولوجيا مع مصالح الطبقة السائدة ، أو مظاهر النقد الشفوي المثبت في كل لقاء ثقافي ، ثنائيا كان أم جماعيا ، رأينا ، والحق يقال ، صراعا حول جزئيات سعى مثيروها لاحتلالها مكان الصدارة في الصراع ، وحول هامشيات لا يستفيد منها النقد والنقاد ، ولا صلة لها بالادب المغربي ومعضلاته .

حاول البعض إثارة مشكلة غياب النقد ، ولكن الجزئيات والهامشيات صدت هذه الاثارة عن الوصول الى هدفها . هل النقد غائب حقا ؟ بأي صيغة ؟ هذا هو السؤال الذي لم يحقق فيه بشكل يجلي الأمور ، ويضع الحقائق في مكانها الصحيح .

8 - النقد موجود في الساحة الثقافية بالمغرب . هذا ما نؤمن به . والوضعية التي هو موجود عليها هي التي تحتاج الى المناقشة . النقد الموجود بالمغرب شفوي من الدرجة الأولى . ولم يكن للنقد المكتوب أن يوجد ويتطور الا مع وجود وتطور الادب المكتوب والمنشور .

وإذا كان النقد الشفوي مزدهرا فلان اللقاءات الادبية ، الشعرية والقصصية والروائية ، تتكاثر يوما بعد يوم .

ما هو عدد الروايات المطبوعة بالمغرب ؟

ما هو عدد المجموعات القصصية ؟

ما هو عدد الدواوين ؟

ما هو عدد المسرحيات ؟

ما هو عدد الملاحق الثقافية والمجلات الادبية ؟

لا نريد اعطاء احصائيات ، فهي معروفة . لم تشهد طباعة الكتب الادبية تقدما وتناميا الا بعد 1970 ، والعدد المطبوع ضعيف ، والبعض من هذا العدد الضعيف ردي ، ومع ذلك فان ما كتب حول جملة من الكتاب المطبوعة أو الاعمال المنشورة ، في الجرائد والمجلات ، متقدم من حيث الكم على الاقل . ويكفي التدليل على عطاء النقد المتواصل ، ولو كان دون العطاء الادبي ، وجود الدراسات العديدة المنشورة في الصحف والمجلات ، أو المنشورة في كتب ، وتقديم رسائل جامعية ، نشر بعضها في المجلات المختصة أو في كتب . وإذا عدنا الى الابحاث الجامعية الخاصة بالنسبة للسنة الرابعة من كلية الآداب (فاس والرباط) فاننا سنصل بوفرة الدراسات المقدمة حول الادب المغربي ، قديمه وحديثه ، ولكنها لم تجد سبيلا الى النشر . واخيرا نجد امامنا نقادا شبابا متوقدين حماسا ، ومواظبين على الكتابة والنشر . وفي مقدمتهم عبد القادر الشاوي ، وابراهيم الخطيب ، وادريس الناظوري (البشير الوندوني) ، ونجيب العوفي .

هناك اذن نقد مكتوب ينمو ويتجذر . يتقدم ويتجاوز .

لم يكن النقد المكتوب موجودا لاسباب ، وبدأ يظهر وينمو لاسباب ايضا .

ليس للمغرب تقليد في النقد المكتوب ، فلم نعرف ناقدا مثل ابن سلام الجمحي أو ابن قتيبة أو الامدي أو الجرجاني أو ابن رشيق أو غيرهم من الاسماء النقدية الهامة في التاريخ النقدي عند العرب بالشرق ، والاندلس .

ربما كان النقد الاخواني بالمغرب ، والمعتمد على الممارسة الشفوية ، هو الطاغى في موروثنا النقدي الضائع ! مع الثلاثينات من القرن العشرين بدأت الكتابة النقدية في الصحف والمجلات ، ولكنها لم تتطور الا بقدر ضئيل في الفترة الفاصلة بين الثلاثينات والسبعينات ، بل ان الانقطاع هو الذي يشكل البنية الاساسية لهذه الكتابة .

كان النقد المكتوب غائبا قبل السبعينات لان الادب المغربي قبل هذه الفترة كان غائبا هو الآخر ، كتيارات ذات ارضية نظرية واضحة ، وممارسة متجانسة ومتكاملة .

ان الادب المغربي في العصر الحديث (ولا نريد هنا طرح اشكالية الادب المغربي القديم بعفوية) كان القاري يجد صدها النقدي ، بصفة غير مباشرة

في النقد العربي المكتوب بالشرق ، ومن ثم لم يكن في حاجة الى نقاد يكتبون له عن عطاء محدود . تكفيه الكتابات النقدية بالشرق العربي مضمون مواجهته .

وتلعب الصراعات السياسية دورا في اذكاء الصراع النقدي ، عندما يتوافر العطاء الادبي ، على اعتبار أن النقد والابداع غير منفصلين عن الواقع الاجتماعي والتاريخي ، ومن ثم فان النقد يفتتح عندما يجد أمامه الاسباب الذاتية والموضوعية للاسهام في الصراع الاجتماعي . وبما أن الابداع الادبي لم يكن متوفرا بالشكل الذي يسمح للنقد لياخذ دوره في الصراعات السياسية التي شهدتها الغرب ، وخاصة في نهاية الخمسينات ، وطيلة مرحلة الستينات ، فان هذه الصراعات السياسية لم تكن وحدها كافية لابرار دور النقد في الصراع الاجتماعي . ولذلك فان الصراع النقدي الذي انفجر في السنة الماضية (وخاصة مع الحملة الانتخابية البرلمانية) وجد الابداع الادبي الذي يمكنه من الدخول في الصراع السياسي .

اما مجالات النشر ، من جرائد ومجلات وكتب ، فلم تعرف اتساعا نسبيا الا مع السبعينات ، ومع اتساعها تصاعد كم الانتاج المنشور ، ابداعا ونقدا . ان اتساع مجالات النشر نسبيا ، في هذه الفترة ، حمل معه امكانية تعدد الرأي في الحركة الادبية عامة ، لان ضيق هذه المجالات ، وخضوعها لاتجاهات ثقافية محددة ، كان عملا له اثره على نشر الرأي الواحد ، وبالتالي الغاء للآراء الاخرى ، فالنقد في حاجة لتعدد الاختيارات ، ولا يمكن لهذا أن يتحقق الا في ظل منظور ديمقراطي للعمل الثقافي .

وعامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة ، وهو المتاعق بالجانب العلمي . ان كلية الآداب لم يتخرج فوجها الاول من حملة الاجازة الا في اوائل الستينات ، ولم يتصاعد عدد المجازين ، نسبيا ، الا مع السبعينات ، وفي هذه الفترة شهد السلك الثالث ، رغم جملة العقبات المثبطة للعرائس ، والحائلة دون تقدم البحث العلمي ، اقبالا بزيادة يوما بعد يوم .

لكل هذه الاسباب ، وغيرها موجود ، ازدهر النقد الشفوي أولا ، وتركز النقد المكتوب حول أعمال أدبية معينة ، بل وأسماء أدبية معينة . كان التقادير هو أن يكتب كل جيل عن جيله ، وكل أصحاب اختيار سياسي عن انصارهم في المجال الابداعي ، ولم تبدأ هذه المنظومة التقليدية تنحل الا مع سنوات قليلة خلت . وما نلمسه الآن ينمو باطراد هو النقد العلمي ، داخل الصحافة التقدمية على الاخص ، وحول الابداع التقدمي من الدرجة الاولى دونما نسيان استمرار النقد التقليدي ، بجميع تفرعاته نتيجة الاسباب الموضوعية ، الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، التي تمكنه من الاستمرار ان النقد الشفوي ما يزال طاغيا على النقد المكتوب ، لانه مستقر في الاعماق ، ولانه بعيد عن الكتابة ، هذا المقدس في اللاوعي الجماعي عند

المغاربة ، وهو مع ذلك بذرة تنتظر التفتح حتى تتحول الى نقد مكتوب ، ولا شك أن السنوات الاخيرة بدأت في بلورة التساؤل النقدي ، بوحي أكثر ملائمة لقضايا الابداع الادبي ، وهو شيء ايجابي جدا .

9 - والصراع النقدي الذي شهده الساحة الثقافية بالمغرب في السنة الماضية ، رغم أنه لم يضع قضايا النقد في مقدمة اهتماماته دائما ، فإنهلقى بعلامات كنت تلمع بين حين وآخر ، وهي التي ربما تدلنا على بعض من عناصر هذا الصراع .

لقد سمح الصراع النقدي بتلمس تيارين متعارضين في مفاعيمهما واختياراتهما النقدية ، التي هي ، بالتأكيد ، انعكاس مباشر لاختيارات ايديولوجية وسياسية ، ركز الاول على الاختيار الوصفي في النقد ، بالمفهوم المنحط لهذا المنهج ، ويمكن استنتاج ذلك من خلال دراسة حسن الطريق للشعراء المغاربة المنشورة بجريدة «العلم» (نهاية 76 وبداية 77) . وهذا المنهج يتضح في التطبيق بصيغة مغايرة عما هي عليه في صراعها النظري ، ومتخلفة عن المفهوم الذي وصل اليه الحديث النقدي الوصفي في أوروبا .

فالمنهج الوصفي الذي يمارس من خلاله حسن الطريق قراءته للشعر المغربي لا يعدو أن يكون استنساخا لبعض المصطلحات والقيم النقدية التقليدية ، بعد أن يمازج بينها وبين بعض المصطلحات والقيم النقدية السائدة في المنهج التأثري . ان حسن الطريق يعيد كتابة النص المقروء ، بعد أن يلغيه ، ويحل محله نصا لا علاقة له بالنص الاول . وهو الى جانب ذلك يعود الى بعض الاحداث التاريخية بأسلوب لا علمي ليجت فيه عن سند لما يطلقه من أحكام ، وما يقدمه كنتاج . ومن ثم كان هذا المنهج خليطا من المناهج ، تلتئم في نقطة واحدة ، وهي معالجة النص بوحي هامشي لا يرقى الى فهم وتفسير المتن الشعري ، كنتاج لغوي ذي بعد أنطولوجي واجتماعي ، له جذوره في الواقع الموضوعي .

ونجد هذا المنهج ، على صعيد التنظير ، يتبنى غير ما يقتنع به عند التحليل ، ولذلك كثيرا ما يتهاوت على المصطلحات والمفاهيم والتحليل الماركسية ، في عدة مجالات من المعرفة ، ليوهم بأنه لا يختلف من غيره ممن يعتمدون في قراءتهم للنص الادبي على المنهج الاجتماعي - التاريخي . وهذا الانقسام الوجود بين النظرية والتطبيق هو نفسه الذي يفصل بين الشعراء والممارسة ، ومثل هذا التعامل مع النص الادبي ، فضلا عن كونه يسلب النقد العلمي جل أوائه ، ويدعي الدفاع عن أهدافه ، نجده في التطبيق معاديا لهما ، ورادعا لدعائهما . يعتمد التوفيقية في مفاهيمه ، والمهادنة الوصفية في تحليلاته ، ومن ثم فهو يدافع عن مفهوم الامة اجتماعيا والتصالح والسلم الاجتماعيين سياسيا .

أما التيار الثاني ، الاجتماعي - التاريخي ، فقد كان وما يزال ، منذ

وسط الستينات الى الآن ، سيد الصراع الثقافي ، خاصة بعد أن أعطاه
علي من عبد القادر الشاوي ، وإبراهيم الخطيب ، وإدريس النافوري ،
ونجيب العوفي ، قوة استطاع بها اكتساح جزء هام من الساحة الثقافية ،
من ناحية ، وفرضه على انصار المنهج الوصفي ، من ناحية ثانية . وهو
تيار يؤسس منظومة قراءته للنص الأدبي على الرجوع بدلالات النص الى
خلفياتها الاجتماعية والتاريخية ، ضمن رؤية تعتمد مقولة الصراع الطبقي
داخل المجتمع . ان هذا التيار ركز على سوسيولوجية المضمون ، احتذاء بما
قام به محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ، ويعدهما حسين مروة ،
وغيرهم بالمشرك ، ومستفيدين من أعمال لوكاتش وغولدمان ، بعد أن
خضعت لمستويات من وعيهم الايديولوجي والنقدي .

ولئن وعي انصار هذا التيار ، منذ بداية الستينات ، ان النقد جزء
من الصراع الايديولوجي ، داخل المجالين الثقافي والسياسي بالمغرب ، فإنه
قد أصبح قاصرا بطبيعة اختياراته ، حيث انه ركز ، وما يزال اغلبه ، على
سوسيولوجية المضمون دون اعطاء أهمية لسوسيولوجية الشكل ، وهي
نفس الملاحظة التي أبداهما الاستاذ عبد الله المروني بشأن كتابات محمود
أمين العالم وعبد العظيم أنيس في بداية الخمسينات .

ان هذا التيار النقدي ، وكما عبر عن نفسه من خلال كتاباته الاخيرة ،
ومن خلال الصراع النقدي ، ولو بصيغة جزئية ، لم يكن جامدا ، بل برز
باستمرار على تجاوز قصور تعامله مع النص الأدبي ، منهجا ومصطلحا ،
بعد أن بدأ يتعرف على المنهج البنوي . هذا المنزع واضح في اجتهاد ابراهيم
الخطيب ، ولكن ما اصبحنا نلامسه ، وربما بقلق متزايد أيضا ، هو ارتقاء
مجموعة من النقاد الشباب في احضان بعض القيم البنيوية ، واعتبارها
الجواب الحقيقي والنهائي على كل التساؤلات النقدية . ونحن نعرف ، عن
يقين ، بأن هؤلاء ما زالوا يغالجون هذه القيم بوعي قاصر ، ولكننا مع ذلك
لا يمكن أن نصمت على ما اختاروه ، أو ما هم بصدد اختياره . وربما كان
التسابق على الدفاع عن المنهج البنيوي ، واحدا من قضايا الصراع الذي
شاهدناه وتتبعناه ، وتلعب الجامعة المغربية دورا في هذا التوجية .

لقد كان من المحتمل أن يظهر التبشير بالبنيوية في وسط المثبتين
بالمنهج الوصفي ، ومن الموالين للايديولوجية البرجوازية ، ولكن الذي حدث
هو عكس ذلك ، حيث نجد البنيوية الآن تنتشر ، وبوعي غير نقدي ، وسط انصار
المنهج التاريخي - الاجتماعي . كان من الممكن أن نتساءل عن أسرار هذه
الظاهرة ، ولكن التجربة التاريخية ، في العصر الحديث ، دلتنا على أن كل
ما له علاقة بالتحديث والمعاصرة تدعو له البرجوازية الصغيرة ، ولبس
البرجوازية أو الطبقة السائدة في العالم العربي . ان هذا المنهج ، حين يستعمل
بعيدا عن الوعي النقدي ، يتحول الى خطر قوي على التيار النقدي الاجتماعي

٢٠ - التاريخي بالمغرب ، وبمعموم العالم العربي . صحيح ان البنيوية هي رد فعل تجاه المناهج النقدية السابقة عليها ، او المتواجدة معها في الساحة النقدية ، ولكن تفسير ظهور وتسييد البنيوية في العالم الغربي عامة برد الفعل فقط ليس كافيا ، لان قراءة النص كدليل معقد يخضع في بنيته لقوانين شكلية ، هي دون الوعي الصحيح بمبررات وجود هذا المنهج ، وسيطرته في الغرب ، ودون الوعي الصحيح بطبيعة النص الادبي ايضا .

٢١ - هذان المنهجان ، او التياران ، لهما امتدادهما داخل المؤسسات والمعاهد التعليمية ، وخاصة الثانوية والعليا ، والقاء نظرة سريعة على الكتب المدرسية المخصصة لدراسة النصوص الادبية في المؤسسات الثانوية ، والدروس والمحاضرات والابحاث الجامعية ، تبرهن على هذه الملاحظة . ولذلك فان هذين المنهجين النقيديين المتجليين في الصحافة المغربية يتأثران ويؤثران بما هو وفي ما هو موجود على الصعيد التعليمي ، سواء اكانت لغة التدريس عربية أم اجنبية (الفرنسية كنموذج) .

واذا كان المنهج الاجتماعي - التاريخي هو الذي يمتلك قوة المبادرة داخل الصحافة المغربية ، وخاصة التقدمية منها ، فان المؤسسات التعليمية تعيش وضعا مغايرا ، حيث يسيطر على البحث الجامعي ، والدروس الجامعية ، والكتب المقررة في كل من المؤسسات العليا والثانوية ثلاثة انماط من المنهج اللا علمي ، تتفاعل فيما بينها ، وتعمل مجتمعة على تسييد وعي نقدي مغلوط ، وهي رغم صراعاتها فيما بينها ايضا ، مهما كانت ثانوية وهامشية ، لا تلبث ان تؤدي الى نفس النتيجة :

١ - المنهج التفسيري ، المعتمد على شرح الفردات ، وتحديد بعض الصور البلاغية المحددة سلفا من قبل البلاغيين القدماء ، والاهتمام ببعض التخریجات النحوية ، والخصائص الابداعية - العروضية ، مع تقسيم النص الى فقرات ، ووضع مقدمات وفتائج . وهذا المنهج يتراجع يوما بعد يوم في المعاهد العليا ، ولكنه في المؤسسات الثانوية يظل المنهج الطاغي ، به يتكلس ذهن التلميذ ، وتقتل فعالياته الابداعية ، ووعيه التاريخي - الاجتماعي .

ب - منهجائين وسان يوف ، ولعلهما الاكثر انتشارا ، بعد ان اصبحا مقبولين حتى من طرف أشد العتاة الذين كانوا يرفضونهما بالامس . ورغم ما قد يظهر على هذين المنهجين من بعض السمات العلمية ، من حيث الاهتمام بما هو خارج النص ، فان العمق يظل قريبا من الاول ، وهو الابتعاد عن ادراك النص في كليته ككتابة مشروطة في قوانينها بقوانين خارجية اجتماعية وتاريخية .

ج - المنهج البنيوي ، وخاصة الشكلائي منه ، ويجد مجالا واسعا له بين مجموعة من الابحاث والدروس الجامعية على الاخص ، والمدافعون عن

هذا المنهج يظنون أنهم يقومون بثورة داخل الجامعة المغربية ، اذ يعيدون صياغة قوانين النص بأسلوب علمي ، بعيد عما هو ليس نصا . وهذا النمط من المنهج الوصفي ، المتقدم حقا في تفكيك بنيات النص ، يساعد

على فتح آفاق جديدة لقراءة النص ، ولكنه يظل خادعا ومخدوعا في آن واحد ، عندما يعتبر النص ذرة مغلقة ، وغير مشروط في بنيته بالواقع الخارجي ، الاجتماعي والتاريخي . وقد أعطت عصرية هذا المنهج امتيازاً معرفياً آمن يتعاطونه ، فيمارسون بهذا الامتياز . قمعاً ، وأعياناً أو غير واع ، لمن هم غير مطلعين عليه .

فهذه الانماط الثلاثة تمثل مراحل ثلاثاً أيضاً لنفس الوعي الخاطيء . ولمراحل تاريخية من سيادة كل واحدة منها . ولم يعد لنا بد من مواجهتها ضلالها ، وفضح ما يترتب عن تسييدها من خلق مفهوم خاطيء . حتماً للنص الادبي ، ولوظيفته في المجالات الثقافية والاجتماعية والتاريخية . ويظل المنهج التاريخي - الجدلي غربياً وسط معاهدنا ومؤسساتنا التعليمية ، وواجهة صراع ثقافي داخل الصحافة التقدمية على الخصوص ، ومن الغريب أن نجد بعض من كانوا ينادون به في الامس أصبحوا منبهرين بمستجدات المنهج البنيوي الشكلاني ، دون أن يستطيعوا التعامل معه بوعي نقدي .

اذن ، هذا المنهجان المتصارعان ، ولو بصيغة غير متكافئة ، داخل الساحة الثقافية ، ومن خلال الصراع النقدي الذي انطلقنا منه في هذه الارضية غير منعزلين عن واقع البحث العلمي ، وواقع التدريس ، وهما ، على عكس ما قد يظن ، يشكلان صورة لواقع عام ومنهج ، تسيير وفقه الثقافة المغربية ككل ، في جميع المجالات ، وخاصة في العلوم الانسانية ، في ترابطها مع الواقع التاريخي والاجتماعي . ونظن أن النقد المغربي ، الذي يريد حقا ان يكون أداة تحررية داخل الوعي السائد ، ملزم باعادة النظر في توجيهه وممارسته ، ويظهر لنا أن امامه ثلاث مهام :

1 - نقد المنهج الوصفي ، بجميع صيغه ومستوياته .

2 - التعريف بالتجربة الانسانية في مجل النقد العلمي ، الذي يعتمد قراءة النص كلغة داخل اللغة ، تتبين وفق قوانين اجتماعية - تاريخية - ثقافية من خلال مختلف اجتهاداته ، وفتراته التاريخية ، واقطابه الذين ناضلوا في هذا الاتجاه .

3 - ممارسة النقد العلمي ، والابداع فيه ، من خلال قراءة الابداع المغربي داخل مجاله العربي .

ويمكن لهذه المهام الثلاث ، المترامنة والمتكاملة ، أن تتحقق من خلال الشروط التالية :

- المزاوجة بين النقد الصحفي والنقد التنظيري .
 - اعطاء الاهتمام لكل من النقد الشفوي والنقد المكتوب .
 - ضرورة ممارسة هذه المهمة في اطار من الحوار الديمقراطي ، وتتحمل الصحافة التقدمية ، وطنيا وقوميا ، مسؤولية في فسخ المجال أمام الآراء المتعددة ، لان النقد لا يمكن أن يزدهر إلا في جو ديمقراطي .
 - اعادة النظر في المصطلحات النقدية ، من خلال مراجعتنا للنقد العربي القديم ، بعد تفكيك تصوراته اللاهوتية ، والاهتمام ، في نفس الوقت ، بالمصطلح النقدي المعاصر بوعي ينفزع عنه بعده التالي ، الاستغلال .

- الاهتمام بكل من البنيوية ، بوعي نقدي حتما ، والمنهج الاجتماعي التاريخي في الدراسات النقدية الماركسية ، عبر مسارها التاريخي ، ومن خلال قراءتها الأكثر اجتهادا وتفتحاً ، ان هذا يعني ببساطة اعطاء الاهمية للقوانين الداخلية للنص في علاقتها الجدلية مع القوانين الخارجية للبنيات الثقافية والاجتماعية والتاريخية ، اذ ان كل داخل يحتاج الى خارج يفسره .

- توجيه هذه الممارسة نحو خلق شروط عمل جماعي ، يساهم فيهمه الاكاديميون ، والمهتمون بالنقد ، في تفاعل جدلي مع قاعدة المثقفين ، سواء عن طريق الحلقات الدراسية المغلقة ، أو جمهور المثقفين في الندوات واللقاءات والمناقشات العامة .

- المزاوجة بين توسيع مجال النظرية النقدية ، وبين ممارستها .
 - المساهمة في هذه الممارسة النقدية وطنيا وقوميا .
 ونظن أن هذا هو الحد الأدنى الذي يمكن أن يكون ، مرحليا ، خطوة نحو المستقبل .

12) إذن ، يتضح من هذا أن قراءة النص . كداخل وخارج ، كإغلاق وانفتاح ، ونمط الوعي الاجتماعي والتاريخي . المبين هذه القراءة ، ليسا أول وآخر ما نحن في حاجة إليه ، هناك الى جانب هذه الضرورة اشكالية الانتقال من الشفوي الى المكتوب ، من الارتجال الى التنظيم ، من التفتت الى التلاحم والترابط . وأيس هناك ، في هذه الحالة ، انفصال بين الهدف من النقد - القراءة ، وبين طرق ووسائل العمل التي تمنحنا القدرة على تغيير الوضع النقدي ، توجيهها وممارسة .

لكل هذا قدرنا أن نهيهء ملفا عن الوضع النقدي ، بالمغرب ، وعيا منا بأن الصراع ضروري ، والوضوح في المفاهيم والاهداف واجب . وهذه المهمة لتحمل مسؤولياتها جماعيا ، كباحثين ، وكمهتمين بالنقد ، وكمدربين ، لان المشكل النقدي يتسع ليشمل جميع المجالات الثقافية .
 ونحن الآن لا نريد أن نتسرع فنقدم تقييما لما طرح في هذه اللقاءات

والنصوص من آراء ، اننا في حاجة لقراءة هذا الملف ، بعد ان استوى على الشكل الذي هو عليه . ونترك التقييم لجميع المهتمين من النقاد والمثقفين لتوضيح ما غمض ، ولتصحيح ما قد يكون خاطئا ، ولتوسيع ما بدأنساء .

هل هذه هي حدود جهننا ؟
تساؤل مطرح علينا جميعا .